بلاغة التوكيد ومذاقاته

أ.أحمد شريف حامدي

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة فرحات عباس / سطيف

يرجع سبب ضعف النحو وجموده، بل وجفافه إلى انفصاله عن علم المعاني، فصار جسدا لا روح فيه، فهو كالسمك الذي أخرج من محيطه.

إنّ علمي النحو والمعاني لا يمكن الفصل بينهما، وأنّ ما تركه الإمام عبد القاهر الجرجاني من مباحث في دلائل الإعجاز وغيره يعتبر الطريق الأسلم الذي كان على النحاة أن يسلكوه بدراستهم للنّحو.

وقد قال البلاغيون قديما : إن لكل مقام مقالا، وإنّ لكل كلمة مع صاحبتها مقاما، يفهم منه معنى : امتزاج النحو بعلم المعاني، كما أن فكرة "المقام" التي توصل إليها شيوخ البلاغة، كانوا متقدمين بها قرونا على زمانهم، ذلك لأن فكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة.[1]

لقد تم الانفصال بين النحوي والبلاغي، وحدث الشقاق بينهما بعد عبد القاهر الجرجاني، مع أن الصلة بينهما لا تنفصم عراها، فكلاهما يتعاملان مع الأداء اللغوي.

إن هذا الانفصال بين العلمين "النحو والبلاغة" يتحمل تبعته النحويون المتأخرون حينما أهملوا دراسة الظواهر النحوية ضمن تراكيبهما اللغوية، وقصروا جهدهم على البحث في ضبط أواخر الكلمات، ولم ينتبهوا إلى البناء وقيمته النحوية الفنية.[2]

بل إن بداية ظهور الجمود في الدرس البلاغي يتحمل مسؤوليتها السكاكي، كما يرى بعض الباحثين : "لقد خيل إليه أنه بمنهاجه المنظم المقنّن يُصلح من شأن البلاغة فإذا به، من حيث لا يدري، يفسدها ويسيء إليها.[3]...

ذلكم هو السبب الرئيس في ضعف النحو وعزوف طلبتنا عن دراسته، لأنه صار عبارة عن قوالب تملأ مرة وتفرغ أخرى دون أي اهتمام بالمقامات التي يرد فيها.

والسبب نفسه هو الذي دفعني إلى الإسهام بهذا البحث المتواضع والذي ساهم في إخراجه مناقشة الطلبة في شواهد من القرآن الكريم على توكيد الخبر.

والآيات هي :

- قوله عزّ وجل : "وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلاّ تكذبون" (يس/15).
- وقوله "وما أنفقتم من شيءٍ فهو يخلفه وهو خير الرازقين" (سبأ/39).
- وقوله "وما ربك بظلاّم للعبيد" (فصلت/46).
- وقوله "أليس الله بكافٍ عبده" (الزمر/36).
- وقوله "وإن من شيءٍ إلاّ يسبح بحمده ..." (الإسراء/44).

فبعد المناقشة تبيّن لي أنهم لا يعرفون من وظائف هذه الحروف إلا أنها حروف جرّ زائدة فحسب.

التوكيد في لغتنا العربية أنواع، وله مذاقات عذبة، ودلالات تختلف باختلاف المقامات الوارد فيها، وأحاول في هذا البحث تقديم بعض صوره وأسراره من خلال آي الذكر الحكيم. كالتوكيد بالحروف، والتوكيد بضمير الفصل، والتوكيد بالجمل، والتوكيد بالتكرار، والتوكيد بنقل الجمل من مستوى إلى آخر، إلى غير ذلك مما نعرضه في هذا البحث وما سنعرضه مستقبلا بحول الله.

*** أولاً : التوكيد بالحروف :**

نأخذ من الحروف على سبيل الذكر حرف (من) :

من : هي حرف من حروف الجر الذي له مذاقاته أيضا ومن معانيها : أنها تكون لابتداء الغاية، وتكون للتبعيض، وتكون للتوكيد.[4]

وذهب الزمخشري إلى أن كل معاني (من) تعود إلى الابتداء.[5]

وهناك آراء أخرى مبثوثة في كتب النحو تصل بها إلى أكثر من معنى...

ومن أمثلة مجيئها للتوكيد قوله عز وجل في سورة يس "وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون" الآية 15.

فسياق الآية إنكار وجحود من القوم الذين أرسل إليهم الرسل وكان ردهم: "ما أنزل الرحمن من شيء".

إذا تأملنا لفظ "شيء" وجدناه نكرة تدل على القليل، فإذا جاءت منفية وأكد نفيها بالحرف "من" كان المعنى أقوى وأبلغ، إذ يوحي بعدم نزول أي شيء مهما تناهى في الصغر والضآلة، حتى ولو كان جزء يسيرا من هباءة لم ينزله الله.

والقول نفسه في قوله عز وجل " وإن من شيءٍ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا " تدل الآية على أنه مهما كان في هذا الكون من أكبر مخلوق إلى أصغر مخلوق، ولو تناهى في الصغر إلى أبعد الحدود يسبح الله عز وجل.

وتقول مثلا: ما قرأت شيئا، نفيك للقراءة غير مؤكد وغير مضبوط، إذ يمكن أنك قد قرأت سطرا من صحيفة، أو كلمة أو كلمتين من سطر، أو جزء من كلمة. لكن عندما تريد نفي القراءة مطلقا ولو بعض كلمة تقول : ما قرأت من شيء، فيكون نفيك للقراءة مؤكدا تأكيدا ثابتا، وأنك لم تقرأ شيئا مهما صغر وضؤل.

واقرأ معي قوله عز وجل في سورة المائدة، الآية 19 "ما جاءنا من بشير ولا نذير"، فحرف "من" جاء توكيدا لعموم ما بعدها، أي : ما جاءنا أي بشير ولا نذير.

ثانيا: التوكيد بضمير الفصل هو:

ضمير الفصل هي تسمية بصرية، أما الكوفيون فيسمونه:

ضمير العماد، وهو ضمير منفصل يؤتى به ليتعين أن ما بعده خبر وليس صفة.

قال الزمخشرى : "فائدة ضمير الفصل الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره".[6]

فضمير الفصل يزيل الاحتمال والإبهام من الجملة التي يدخل عليها ويفيد التوكيد وخير ما يمثله قوله عز وجلّ في سورة النجم الآيات :(43-50):

"وأنه هو أضحك وأبكى (.) وأنه هو أمات وأحيا (.) وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (.) من نطفة إذا تمنى (.) وأن عليه النشأة الأخرى (.) وأنه هو أغنى وأقنى (.) وأنه هو رب الشعرى (.) وأنه أهلك عادا الأولى(.)"

تلاحظ أن ضمير الفصل قد ذكر في بعض الآيات وغاب عن آيات أخرى... فما السر في ذلك ؟..

الأفعال "أضحك، وأبكى، وأمات، وأحيا، وأغنى، وأقنى" مقيدة بضمير الفصل ليبين الله عز وجل للمشركين أن تلك الأفعال ينفرد بها هو وحده ولا يشاركه فيها أحد كما يزعمون.

أما فعل "الخلق" فا لمشركون يعترفون بفعله لله عز وجل قال تعالى "ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله"، أما فعل"النشأة الأخرى" والبعث غدا يوم القيامة فهم ينكرونه ويجحدونه. وجاء الحديث عنه غير مؤكد بضميره الفصل فما السر في ذلك؟

والجواب : تصور معي أن مخترعا توصل بعد جهد جهيد وعناء طويل إلى اختراع آلة من الآلات، ثم تقدم باختراعه إلى إحدى الشركات لتنتجه، وبعد أيام اتصلت به الشركة وطلبت منه نموذجا آخر لاختراعه، لأن الذي قدمه إليها قد ضاع منها. أيجد المخترع صعوبة ويعجز عن إنجاز نموذج آخر لاختراعه، أم أنه ينجزه بيسر وسهولة؟. ولله المثل الأعلى، أإعادهم غدا يوم القيامة وإحياؤهم من جديد أهون على الله وأسهل أم أن خلقهم هو الأصعب؟ فمن الغباء أن يعترفوا بأن الله هو الذي خلقهم ثم ينكرون عليه النشأة الأخرى، فهي أهون من النشأة الأولى، ولا يصعب عليه عز وجل شيء في البداية ولا في الإعادة مصداقا لقوله: "إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون".

ثالثا: التوكيد بالتكرار:

اقرأ قوله عز وجل في سورة النبأ الآيات (9-11): "وجعلنا نومكم سباتا(.) وجعلنا الليل لباسا (.) وجعلنا النهار معاشا (.)" فالفعل "جعل" هو المسند و"نا" العظمة هي المسند إليه، وقد تكرر الإسناد، ولذلك يعتبر هذا نوع من أنواع التوكيد، ليكون نوع هذا الخبر طلبيا إذ يحسن بالمتكلم أن يؤكد للمخاطب الخبر بمؤكد واحد.

رابعا: التوكيد بالجملة الاسمية:

التعبير بالجملة الاسمية أوكد وأقوى من التعبير بأختها الفعلية، فهي تقيد بأصل وضعها ثبوت الحكم فحسب بلا نظر إلى تجدد، وقد تفيد الدوام والاستمرار بقرينة السياق كما في قوله عز وجل في مدح الرسول ﷺ "وإنك لعلى خلق عظيم" القلم الآية 4.

أما التعبير بالفعلية فهي تدل بأصل وضعها على التجدد في زمن معين مع الاختصار، لأن فعلها يدل بذاته على أحد الأزمنة الثلاثة لا بقرينة خارجية عنه، بخلاف الاسم الذي يدل على الزمن المعين بقرينة أخرى كأن تقول : أمس، أو الآن، أو غدا.

وقد تفيد أيضا الاستمرار ا لتجددي شيئا فشيئا بمعونة القرائن ،و خير مثال على ذلك قوله عزّ وجلّ: "قد أفلح المؤمنون (.) الذين هم في صلاتهم **خاشعون**(.) والذين هم عن اللغو **معرضون** (.) والذين هم للزكاة **فاعلون**(.) والذين هم لفروجهم **حافظون** (.) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (.) فمن ابتغى وراء ذالك فأولئك هم **العادون** (.) والذين هم لأماناتهم وعهدهم **راعون** (.) والذين هم على صلواتهم **يحافظون** (.) أولئك هم **الوارثون** الذين يرثون الفردوس هم فيها **خالدون** (.)" (المؤمنون/1-11).

تدبر معي الآيات السابقة وتأمل الأخبار التي تحتها سطر تجدها أسماء وليست أفعالا ما عدا الخبر "يحافظون" في نهاية الآيات.

والسر في ذلك أنها أخبار ثابتة ملازمة لأصحابها لا تفارقهم ولا تتغير ولا تتبدل، فالصلاة لاتكون صلاة إذا فقدت صفة الخشوع، فروحها الخشوع، وهي بدونه، مجرد حركات وسكنات لا غير ولذلك أخبر عنها بالخبر الاسمي "خاشعون" وكذلك بالنسبة للغو، فهو الصفة الثانية للمؤمنين بعد الخشوع في الصلاة، فالإعراض عنه صفة ثابتة لصيقة بهم لا تفارقهم ولا تتغير.

أما الزكاة فهم لها فاعلون، أي أنهم يخرجونها طواعية عن طيب خاطر. وهم في إخراجها يجدون لذة وحلاوة، وكأنها صارت عندهم غزيرة فطرية موكوزة في نفوسهم، كغزيرة الجوع والعطش، فهم يتلذذون بها طاعة لله عز وجل ولرسوله عليه الصلاة والسلام، وكذلك حفظ الفروج وحفظ الأمانات والوفاء بالعهد ...

أما المحافظة على الصلوات فجاء الخبر عنها فعلا مضارعا "يحافظون" والسر في ذلك أن التعبير بالفعل يفيد التجدد والتغيير والاستمرار التجددي مع الزمن ومع كل يوم.

فعلى المؤمن أن لا يترك الصلاة وأن يحافظ عليها مدة وجوده في الحياة إلى أن يتوفاه الله....

وهذا هو السر في الاختلاف بين التعبيرين بالاسمية والفعلية، وبين الانتقال من مستوى الاسمية إلى مستوى الفعلية، والعكس.

خامسا: التوكيد بالمصدر وإنابته عن الفعل :

الانتقال من مستوى التعبير بالفعل إلى الانتقال للتعبير بالمصدر... له أيضا أسراره ومذاقاته ومقاماته.

اقرأ معي قول الله عز وجل: "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ..." سورة محمد الآية (4).

الله عز وجل أمر المؤمنين بضرب رقاب الكفرة بمجرد لقائهم، فجاء الأمر بالضرب بواسطة المصدر "ضرب" وأنزل منزلة فعل الأمر "اضرب" فقد انتقلت الجملة من مستوى إلى مستوى آخر، والسر في ذلك يعود إلى أن المقام مقام عزم وجد يتطلب الحزم والعزم في التنفيذ، وعدم التهاون أو التباطؤ، ويتطلب أيضا السرعة في الانقضاض على أعداء الله دون تريث ... وهذا لا يتم ولا يتأتى إلا بالتعبير عن هذه السرعة والمضاء بالمصدر "ضرب" وليس بالفعل "اضرب". ثم تذوق معي طعم الفاء الجميلة المتصلة بالفعل "اضرب" والتي اختصرت الزمن وأكلته بحيث أنه بمجرد اللقاء بين المسلمين وأعداء الله يكون ضرب الرقاب دون فاصل زمني بينهما، أي أن الزمن ينعدم بين اللقاء وفعل الضرب.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التوكيد أو عدمه يكونان تبعا لحال المخاطب ودرجة إنكاره قوة أو ضعفا، أو عدم إنكاره، أي أن المتكلم ينظر إلى حال من يخاطب فيصوغ عباراته على ما يقتضيه حاله الحقيقي أو الاعتباري.

وهناك ضروب أخرى من التوكيد ذكرها الدكتور محمد أبو موسى لا ينظر فيها إلى حال المخاطب، وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله لهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها، وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه.(7)

ومنه قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام في ضراعته: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم" إبراهيم/37، وقوله : "ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء" إبراهيم/38.

فالتأكيد هنا لم ينظر فيه إلى حال المخاطب وإنما نظر فيه إلى حال النفس الراجية وبيان مدى انفعالها بهذا الرجاء.

* وقد يكون التوكيد لرغبة المتكلم في تقوية الكلام عند المخاطب وتقريره في نفسه وإن كان غير منكر له كقوله تعالى في مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام: "إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا" الإنسان/23، وقوله : "إنني أنا الله لا إله إلا أنا فا عبدني وأقم الصلاة لذكري" طه/14.

وقوله : "وإن ربك لهو العزيز الرحيم وإنه لتنزيل رب العالمين" الشعراء/191-192.

فالمخاطب عليه السلام ليس في نفسه إثارة شك في هذه القضايا، ولكن التوكيد يهدف إلى زيادة تقرير المعني في نفسه عليه السلام حتى يبلغ به عين اليقين.

وقد يكون التوكيد لتحقيق الوعد كما في قوله عز وجل: "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون" (الأنبياء/101، وقوله: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير" الحج/39.

* وقد يكون التوكيد لتحقيق الوعد كما في قوله تعالى: "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون" الأنبياء/98.

* وقد يكون التوكيد للإشارة إلى أن الذي كان لم يكن على وفق ظن المتكلم، فكأن نفس المتكلم تنكره فيؤكده لها، ومثاله قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : "قال رب إن قومي كذبون" الشعراء/117.

* وقد يكون التوكيد لغرابة الخبر وحرص المتكلم على أن يؤنس به نفس المخاطب، وإن كان المخاطب لا ينكره، ومثاله قوله تعالى : "فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين" القصص/30.

ففي التأكيد "إني أنا الله رب العالمين" إيناس لنفس سيدنا موسى عليه السلام بالخبر، لأن الموقف غريب وقد يعلق بنفسه شيء ما بعد ذهابه إلى المكان الذي رأى فيه النار ليأتي بجذوة منها لأهله لعلهم يصطلون، وكان ذلك في ليلة مظلمة

شديدة البرودة، فإذا به بنداء الحق يناديه من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة. وهدا موقف يحتاج إلى مؤانسة نفس موسى عليه السلام وطمأنتها حتى تثبت ولا تفزع، ومثله قوله عز وجل يخاطب موسى عليه السلام لما رأى أفاعيل السحرة وأوجس في نفسه خيفة قال له سبحانه: "لا تخف إنك أنت الأعلى" طه/68.

* وقد يكون التوكيد إظهارا لمعتقد النفس وإبرازا له لتزداد النفس يقينا به، لأن مقامها يقتضي ذلك، ومثاله قوله تعالى: "الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون" البقرة/ ، فالموت بالنسبة للمؤمن قضاء وقدر لا يقول فيها عند المصيبة إلا ما يرضي الله ...

وهذه الآية هي العلاج بل هي البلسم الشافي له، خلافا لغير المؤمن الذي لا يربطه بالله عز وجل أي رابط فأخوف ما يخافه وترتعد له فريصته هو الموت، بل بمجرد سماعه لها ينهار وينهزم، لأنه لا إيمان له.

ومن التوكيد الذي يذكره الدكتور أبو موسى: التوكيد الذي يأتي في الجمل التي كأنها نتائج لمقدمات فيلفت إليه وكأنها هي المقصورة والأهم وموضع العناية في السياق، وخير مثال لهذا اللون من التوكيد قوله عز وجل في سورة الحج: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا، ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا، وترى الأرض ها مدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من القبور" سورة الحج/5 — 6.

نلاحظ أن المقام الوارد فيه التوكيد مقام جحود وإنكار ليوم البعث، فجاءت الآيات ترد على المكذبين به، وتقدم لهم دليلين واضحين لكل ذي عقل واع متدبر ..

الدليل الأول يتمثل في خلق الإنسان ومراحل تكوينه إلى أن يصل إلى أرذل العمر قال تعالى : "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" وقال "وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم"..

والدليل الثاني في الأرض، وكيف تهتز وتربو حينما يترل عليها الماء من السماء فتنبت بإذن ربها من كل زوج بهيج، فالذي خلق الإنسان من ماء مهين، وأخرجه من رحم أمه، وتدرج به في الحياة إلى أن يصل به إلى أرذل العمر، وأحيى الأرض بعد موات وأنبت فيها من كل زوج بهيج، قادر على أن يبعث الإنسان ويحييه بعد موته من جديد.

تلك مقدمتان : الأولى في الإنسان، والثانية في الأرض، ثم ختمتا بخمس جمل مؤكدة كانت نتائج لهما.

تلكم هي بعض ضروب التوكيد وبعض مذاقاته ليتبين لنا بأن التوكيد ليس مقصورا على علم النحو فقط بل يتعدى إلى علم المعاني، وحبذا لو يدرس لطلابنا ممزوجا بعلم المعاني لتكون الفائدة أعم وأشمل، وليزداد اهتمام الدارسين به وببقية الأبواب النحوية الأخرى.

والله المستعان

الهوامش

القرآن الكريم : برواية ورش.

* د: تمام حسان : اللغة العربية، معناها ومبناها. ص:333،337./ط 2. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979.
* د: رجاء عيد : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور .ص:17/ مطبعة منشأة المعارف، الإسكندرية، القاهرة.
* د: عبد العزيز عتيق : علم المعاني /ص27/دار النهضة العربية، بيروت 1974.
* سيبويه: الكتاب ج4 : 244 وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975.
* الزمخشري : المفصل :ص283، دار الجيل، ط2، بيروت.
* د. عبد الهادي فوضيل : مختصر النحو: ص52، دار الشروق، ط 11، جدة، السعودية 1986/1406.
* د: محمد أبو موسى : خصائص التركيب : ص57، مكتبة وهبة، ط 2، القاهرة 1980.